الكتاب: رسول الله ﷺ في المسجد الأقصى

الكاتب: د. أسامة الأشقر

الطبعة الثانية – مزيدة ومنقحة

2014/1436

ISBN 978-9933-9124-0-6

الناشران

مؤسسة فلسطين للثقافة

البريد الإلكتروني:
thaqafa@thaqafa.org

الموقع الإلكتروني:
www.thaqafa.org

مؤسسة القدس الدولية

لبنان – بيروت

ص.ب.: 113/5647

هاتف: 009611751725

فاكس: 009611751726

البريد الإلكتروني:
info@alquds-online.com

الموقع الإلكتروني:
www.alquds-online.org

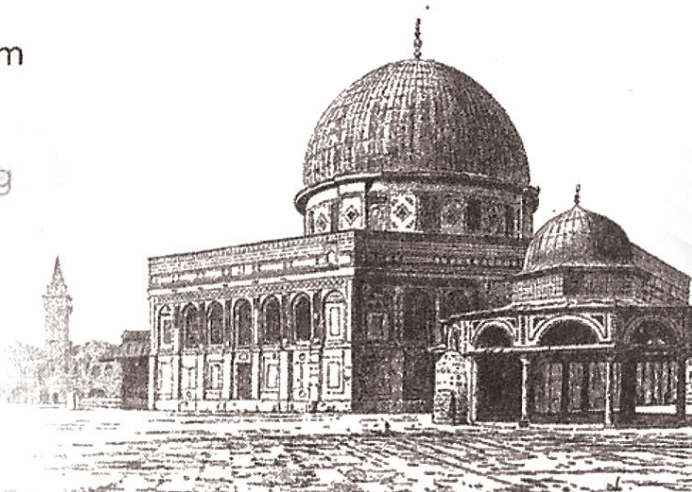

تصميم وطباعة

AFNAN.media

فهرس المحتويات

المقدمة 4
مقـام التـشـوّق 6
مقـام التقديـس 24
مقـام البـِشـارة 32
مقام الاستحقاق 41

بسم الله الرحمن الرحيم

لله الحمد في الأولى والآخرة

هذا كتاب صغير الحجم مركز الفائدة يكشف عن موضع المسجد الأقصى وبيت المقدس في اهتمامات رسول الله ﷺ وأولوياته، ويحدد مسارات هذا الاهتمام وبداياته ومناحيه حتى استوى على صورته الإسلامية الناصعة، ويقدّم هذه المعرفة ضمن دوائر أفقية متداخلة اصطلح المؤلف على تسميتها بالمقامات وجعلها أربعة مقامات هي مقام الشوق والتطلع، ومقام البشارة ومقام التقديس ومقام الاستحقاق، ونحسب أن هذه الخلاصة المعرفية الروحية والعلمية تحتوي مادة ثرية غزيرة لمن أراد أن يفهم سر مكانة هذا الموضع في التصور الإسلامي، ولو كان الناس في عهد المتون والشروح والحواشي لأفاض الناس في بيان أهمية ما تورده هذه الخلاصة من معارف وحقائق وكواشف منتخبة من دراسة عميقة لهذه القضية.

مقام التشوّق
مقام البِشارة
مقام التقديس
مقام الاستحقاق

مقـــام التشـوّق

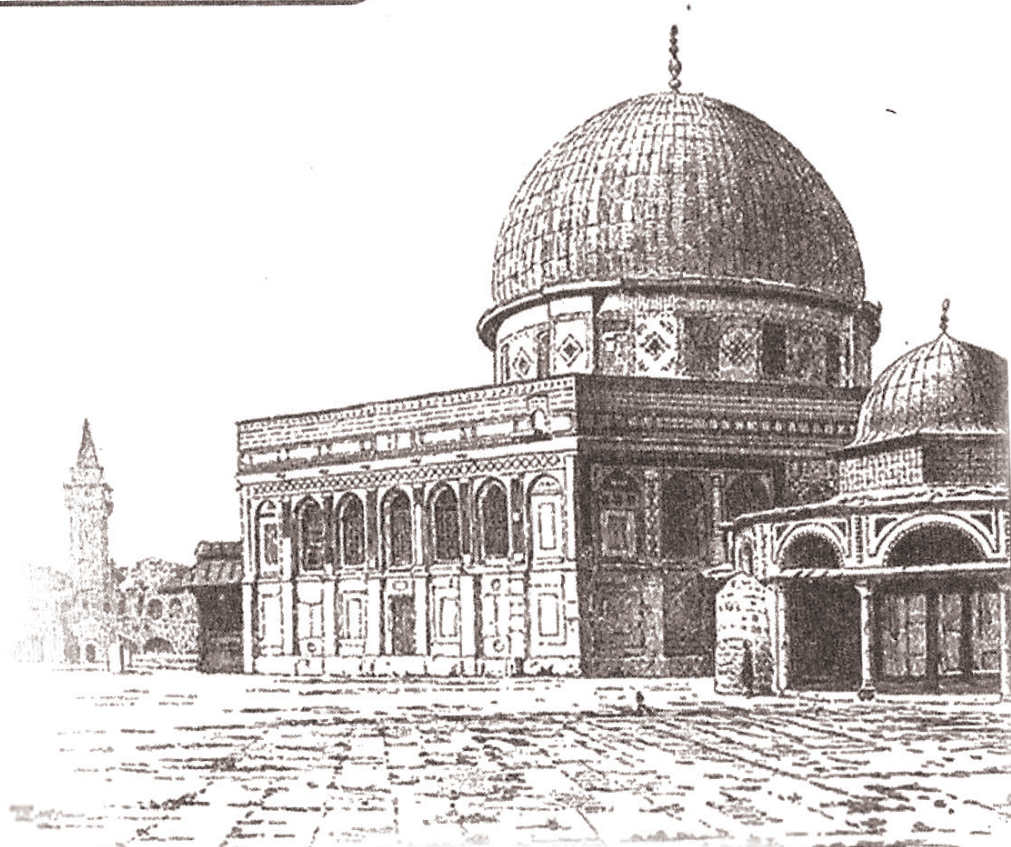

مقام الشوق والتطلع

التطلع إلى الشيء من آثار الأنس به والشوق إليه، وإذا غلب على المرء التطلع إلى الشيء رغب فيه، وإذا رغب فيه سعى إليه بالقرب منه أو الحضور إليه أو ذكره واستدعائه في حديثه الذي يطيب له ويسامر به أخلاءه المقربين، وصفوته المنتجبين، وقد نبت الشوق أول ما نبت في قلبه ﷺ، ثم ارتوى بماء رؤية الشام والتردد عليها في أول فتوته، وكان خرج به عَمُّه أبو طالب تاجراً إلى الشّام، وله ثلاث عَشَرَة سنة، فرآه بَحِيرى الرَّاهب يتيماً، فعرفه بعلائم النُّبُوة والصِّفة التي عنده؛ فلم يزل يناشد أبا طالب حتى ردَّه إلى مكة خوفاً عليه من حسد يهود، فأقام بها إلى أن بلغ خمساً وعشرين سنة. ثم خرج في تجارة للسيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها إلى الشام، فوصل إلى بصرى، فباع وتعوّض، وعاد إلى مكة.

ولم تكن الرحلة إلى الشام مجرد رحلة على ظهور الإبل

المحملة بالبضائع في غدوّها ورواحها بل كانت أيضاً جولة استكشافية تتيحها الرحلة القديمة التي تستمر أشهراً في جغرافية الشام ومعالمها، ولم يكن ليغيب الحديث عن مدينة إيلياء في أي موضع من مواضع الشام إذ هي محل الحدث ومركز القداسة وذروة الصراع بين المسيحية واليهودية قبل الإسلام، وبين الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الفارسية، وكانت المعارك على تخومها بين جيوش كسرى وقيصر بعد استيلاء الفرس على المدينة ومحاولات الروم استعادتها مما يشغل المنطقة بأسرها، ولا يغيب عن تقديرات التاجر الذكي ما يجري من أحداث سياسية كبيرة تؤثر في تجارته ومرتفَقه.

وليس هذا فحسب فقد كان لتجار قريش منازل في الطريق ينزلونها لقضاء حوائجهم، وكان بعضها في بيت المقدس نفسها أو في الطريق إليها كما أخبرنا بذلك أبو بكر الصديق نفسه: فعَنْ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ، قَالَ: «**فَلَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ التَّسْلِيمِ وَالإِيذَانِ فِي الْبُيُوتِ، قَالَ أَبُو بَكْرِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَكَيْفَ بِتُجَّارِ قُرَيْشٍ الَّذِينَ يَخْتَلِفُونَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، وَالشَّامِ وَبَيْتِ الْمَقْدِسِ وَلَهُمْ**

بُيُوتٌ مَعْلُومَةٌ عَلَى الطَّرِيقِ، فَكَيْفَ يَسْتَأْذِنُونَ وَيُسَلِّمُونَ وَلَيْسَ فِيهَا سُكَّانٌ، فَرَخَّصَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ ﴾ بِغَيْرِ إِذْنٍ. راوه ابن أبي حاتم في تفسيره.

تلك المشاهدات الأولى في رحلتين معروفتين للنبي عليه الصلاة والسلام اقتربت به من هذا المكان حيث جرى تسجيل المشاهد البصرية العامة للدروب والمعالم والحياة وصخب التجارة وأحاديث الناس واهتماماتهم، وجرى على ما أظن قياس موقف القبائل الشامية العربية من السيطرة الرومانية، ورأى رسولُ الله نصارى الشام من العرب وغيرهم، وسمع عن مذاهبهم ومبلغ الشُّقة بينهم حول طبيعة المسيح عليه السلام، والمظالم التي ترتكبها السلطة الرومانية بحق الشاميين من النصارى العرب والسريان، فتلك الأخبار والمسموعات هي من مألوفات الحديث العربي هناك حيث البيئة الثقافية الشامية غير البيئة الثقافية في حواضر الحجاز وبوادي جزيرة العرب.

خلال عقود عديدة لم تصلنا معطيات كافية نستطيع من

خلالها أن ننقل مشاهدات النبي ﷺ، وكل ما نعلمه أن ميسرة غلام السيدة خديجة بنت خويلد كان شاهداً على أحداث جليلة وقعت للنبي ﷺ هناك، ولم تورد لنا كتب السير للأسف ما كان يحكيه مَيْسَرةُ لمولاته السيدة خديجة عن تفاصيل الرحلة سوى ما كان محل العجب وموضع الدلالة على الكرامات التي جرت للنبي ﷺ في رحلته.

وفي كثير من كتب الفضائل نجد في حديث رسول الله ﷺ ذاك التأكيد على الشام حيث مركز البركة في بيت المقدس، ولم يكتف رسول الله بآيات البركة التي منحها الله لهذه البقعة الطاهرة كما ورد في خمس مواضع من القرآن، بل إنه خصّ هذا الموضع بالدعاء «اللهم بارك لنا في شامنا» فالشام كما عَهِدها رسول الله آنذاك هي موضع الخصب وموضع الرزق واليسار والاتجار لأهل مكة، وأن البركة في الشام ستعود على جزيرة العرب بالضرورة فهي على تخومهم وحدودهم، وبينها وبينهم صلة قرابة قديمة لكثرة قبائل العرب بالشام من

ذوي الأصول اليمنية، وكثرة المعارف والمصاهرات التي تحدثت عنها كتب الأنساب القديمة بين قريش وأهل الشام.

وفي مقام التطلع نرى شدة توثيق النبي عليه الصلاة والسلام لمكانة الشام في نفوس أصحابه، وهي المكانة التي تحتل من قلبه منزلة كبيرة تدفعه إلى تشريع هذه المكانة في نفوس من يليه من الصحابة، فلو لم تكن هذه المكانة في قلبه هو لما أمر أن تفتتح مكاناً لها في قلوب أتباعه ومحبيه فعن زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه قال: **سمعت رسول الله يقول: يا طوبى للشام! يا طوبى للشام! يا طوبى للشام! قالوا: يا رسول الله ولم ذلك؟ قال: تلك ملائكة الله باسطو أجنحتها على الشام.**

وعن معاوية بن حيدة رضي الله عنه قَالَ: «**قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيْنَ تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: هَاهُنَا وَنَحَا بِيَدِهِ نَحْوَ الشَّامِ....**

وليس غريباً إزاء ذلك أن يكرر رسول الله الدعاء للشام بالبركة«**اللهم بارك في شامنا ويمننا**» رغم أنها مذكورة بالبركة كما أشار القرآن إلى ذلك، فهذا الدعاء مقصودُه

زيادة البركة وتحقيقها، ومن الملفت في استحقاقات البركة هذه أن أوائل الفاتحين المسلمين للشام وفلسطين كانوا من أجناد اليمن الذين قرن رسول الله الدعاء لهم بالبركة مع الشام، وقد أفضنا في كتابنا «البركة: مقوماتها ومنازلها بين مكة وبيت المقدس» في بيان هذه البركة وحقيقتها ومواضعها وسبل استجلابها وكشف أسرارها بما يغني عن الإعادة هنا.

وليس هذا فحسب، فهذه المكانة يجب أن تُحفَر في قلب كل مؤمن، ويجب أن تكون جزءً من مُعتقَده وإيمانه، فجعل رسول الله المسجدَ الأقصى من الأماكن المقدسة الثلاثة التي لا تنقطع الرحلة إليها، ولا تُشدّ رِحال العبادة إلا لها، وشدّ الرحال فيه كناية عن المشقة والكلفة في الارتحال، وإعداد الراحلة القادرة على الوصول، وإعداد الزاد والبعد عن الأهل، فصارت الناس في ثقافتهم الشعبية من شدة تعلقهم بهذه المواضع الثلاثة يظنون أن الحج لا يكتمل إلا بربطها معاً، فشاع بينهم ما يسمونه بتقديس الحج، فينوي أن يزور المسجد الأقصى بعد أداء فريضة الحج، أداء لسنّة شد الرحال على ما يظنّون، وطمعاً في

إكمال عقد القداسة، وهذا من فرط تعلقهم بهذا المكان، بل إن بعضهم ممن فاته الحج كان يجتمع يوم عرفة في باحات المسجد الأقصى يذكر الله فيه كما يفعل الحاج، وهو الأمر الذي لم ير فيه بعض الأئمة حرجاً كالحسن البصري والإمام أحمد بن حنبل.

وقد ورد في الآثار جواز تقديم الإحرام على الميقات من المكان البعيد مع الترغيب فيه، وقد فعله غير واحد من الصحابة كعبد الله بن عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل وعبد الله بن عمرو بن العاص وعتبان بن مالك، ومن التابعين كوكيع بن الجراح وعبد الله بن المبارك، وكان بيت المقدس من المواضع التي أحرم منها هؤلاء استناداً إلى ما ورد في حديث أم سلمة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: **مَن أهلَّ بحجة أو عمرة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر أو وجبت له الجنة)** رواه أحمد وأبو داود والبيهقي.

وتأتي حكاية الإسراء والمعراج لتدفع الاهتمام بالمسجد الأقصى

إلى البؤرة من خلال تقديم واحدة من أعظم المعجزات النبوية الغيبية في تلك الرحلة، وبإقرار الصلاة على شكلها الإسلامي والتي هي من أعظم شعائر الدين في تلك الرحلة، وتحديد اتجاه القبلة نحو بيت المقدس والمسجد الأقصى.

وأكثر ما يتجلى تحرير مقام الشوق عندما عاد النبي إلى مكة بعد رحلته السماوية تلك وامتحاناته الصعبة التي واجهه بها كفار قريش، وبعض مَن لم يثبت إيمانهم أمام الغيبيات، و ندرك صعوبة التحدّي المكانيّ الذي نازل به كفارُ قريش روايةَ نبيّ الإسلام حول رحلته الخاطفة إلى المسجد الأقصى، إذ إنّ النبيّ كان في رحلة إيمانيّة عميقة شغلته – في رأيي - عن صورة المكان، كما أنّ رحلتي الذهاب والإياب كانتا في الليل فلم تتبين صورة المكان كما لو كانت الحال في النهار تحت الشمس، وما معرفتُه الدقيقة بصورة الأنبياء وحرصه على وصفهم إلا انعكاساً لاشتغال قلبه بالمعرفة الغيبيّة العظيمة في رحلة المعجزات الخارقة، ومع ذلك فإنه وَصَفَ لهم قدراً معقولاً مما يملأ العين من الأمور الظاهرة في صفة المكان؛ فقد تحدث النبيّ ﷺ بوضوح عن أنه لم يشغل باله

بعدّ أبواب المسجد الأقصى الذي أتاه ليلاً، ومن أجل ذلك وصله العرفان الإلهي بتشخيص المسجد الأقصى أمامه:

(... **وقمتُ في الحِجْر فجلَّى الله لي بيتَ المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته، وأنا أنظر إليه، فقال بعضهم: كم للمسجد من باب؟ - ولم أكن عَدَدْتُ أبوابَه - فجعلت أنظر إليها، وأعدّها باباً باباً**) رواه ابن سعد في طبقاته.

وانظر إلى قوله «وأنا أنظر إليه» فقد كان عليه الصلاة والسلام في غنى عن ذكر هذه الجملة، لأن التجلي يستلزم حصول الرؤية من الناظر إلى المنظور إليه، ولكنه أفاض في الحديث كما يفيض المحبّ المكثر من ذكر محبوبه، ثم يكرر النظر بعمق وتفصيل أكثر لما سألوه عن أبوابه «**فجعلت أنظر إليها**».

لكن المشركين الذين أغضبتهم قدرة النبي على تذكر المشاهد الكبيرة في صورة المكان اتجهوا صوب ما ظنوه توريطاً في التفاصيل الصغيرة التي لا تسترعي انتباه العابر السريع أو

المنشغل بما هو أهمّ، أو المهموم بما هو أشغلُ، واستجمع كفارُ قريش أنفسَهم لِمَا رأوه من صعوبة تصديق الناس لهذه الرواية العجيبة، حتى لو أن النبيّ ﷺ لم يعجز عن الإجابة، لذلك ارتدّ بعض الذين لم يثبت الإيمان في قلوبهم ممن كان قد أسلم من قبل، ولم يصبر معه سوى نفر قليل كان منهم الصّدّيق أبو بكر، ولم تكن هذه الفرصة ليفوّتها كفارُ قريش، فكان التحدّي الكبير منهم هو المطالبة بوصف المكان ليتحققوا من صحة روايته، إذ كان بعضهم ممن رأى الموضع، وعلم صورته، فقال كفار قريش: (... وتستطيع أن تنعت لنا المسجد؟ - وفي القوم من قد سافر إلى ذلك البلد، ورأى المسجدَ - قال رسول الله: **فلما كذبتني قريش قمتُ في الحِجْر - وقريشٌ تسألني عن مسراي - فذهبت أنعت، فما زلت أنعت حتى سألتني عن أشياءَ من بيت المقدس لم أثبتها، فكربت كربة ما كربت مثله قط)**

رواه أحمد والبزار.

فكان الدعمُ الإلهيّ بأنْ رفع اللهُ لنبيه صورةَ المكان ليصف النبيُّ بدقةٍ متناهية تفاصيلَ الصورة ومشهد المكان: (**قال:**

فأثنيت على ربّي، وسألته أن يمثِّلَ لي بيتَ المقدس، فجلى الله لي بيت المقدس، فرفعه الله لي أنظر إليه، حتى وضع دون دار عقيل، ما يسألوني عن شيءٍ إلا أنبأتُهم به، فطفقت أخبرُهم عن آياتِه، وأنا أنظر إليه، فقال القوم: أمّا النعت فواللهِ لقد أصاب) رواه أحمد والبزار.

ونقلُ صورةِ المسجد الأقصى قد تكون نقلَ رؤيةٍ، أو أن الله قد خلق الإدراك للرسول حتى صار في التبيين له كأنه قريب منه كقرب هذه الدار، والكل جائز.

ورغم أن الصحابة الكرام لم يوردوا لنا ما ذكره النبي الكريم عن صفة هذا المسجد الأقصى وهيئته، رغم أنهم ذكروا كثيراً من الملاحظات النفسية التي حكاها رسولُ الله لهم كالاعتزال والحزن والكرب، وذلك يعود إلى أنّ هذه المناظرة في أكثر من موقفٍ كانت بين النبي ﷺ وحَده في الغالب، وبين كبارات رجال قريش، لذلك حكى هذه المواقفَ ورواه لأصحابه رسولُ الله نفسه، فهو من روى لهم هذه القصة

بعد حينٍ، وكررها عليهم؛ وإن كان أكثر ما يشغل النبي ﷺ هو الوقوف على موضع العبرة والعظة والمعرفة وشاهِدُ ذلك الرأي هو ما استفدناه من تحليل هذه الرواية:

(... وقعد رسول الله معتزلاً حزيناً، فمر به عدوُّ الله أبو جهل، فجاء، حتى جلس إليه، فقال له كالمستهزئ: هل كان من شيءٍ؟ فقال له رسول الله: نعم، قال: وما هو؟ قال: إني أُسري بي الليلة، قال: إلى أين؟ قال: إلى بيت المقدس، قال: ثم أصبحتَ بين ظهرانينا؟ قال: نعم، - فلم يُره أنه يكذبه مخافة أن يجحدَه الحديثَ إذا دعا قومَه إليه - فقال: أرأيت إن دعوتُ قومَك أتحدّثهم بما حدثتني؟ فقال رسول الله: نعم، قال: هَيَا معشرَ بني كعبِ بنِ لؤي هلمّ؛ فانتفضتْ إليه المجالسُ، وجاءوا حتى جلسوا إليهما، قال: حدِّثْ قومَك بما حدثتني! فقال رسول الله: إني أسري بي الليلة! فقالوا: إلى أين؟ قال: إلى بيت المقدس، قالوا: ثم أصبحتَ بين ظهرانينا؟ قال: نعم! فمن بين مصفّقٍ، ومن بين واضعٍ يدَه على رأسه متعجّباً للكذب...) رواه أحمد.

وأرى أن النبيّ ﷺ قد تدرّج في تقديم تفاصيل رحلته العجيبة إلى

بيت المقدس ثم إلى السماء، فقد واجهت هذه الرواية تكذيباً من بعض من آمنوا به، ودفعهم ذلك للارتداد، كما واجهت الرواية هجوماً حاداً من كفار قريش، ولم يكن إطلاق صفة الصِّدّيقيّة على أبي بكر لإيمانه بالتفاصيل عن هذه الحادثة العجيبة دون تردد إلا تأكيداً على صعوبة بسط التفاصيل أمام المؤمنين فضلاً عن المشركين، ولذلك ركّز النبي ﷺ في جداله مع المشركين في تأكيد حدوث الإسراء على قصة انتقاله من مكة إلى بيت المقدس والعودة منها في تلك السرعة، ولم يجادلهم في مرويات ما حصل في السماء، إذ إن ذلك يحتاج إلى قلوب مؤمنة منفتحة، حتى إن آية الإسراء نفسها لم تتحدث عن قصة عروجه إلى السماء:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

[الإسراء الآية ١].

وتأسَّسَ الجدال مع مشركي قريش على تقديم الأدلة الحِسّيّة على حدوث ما ذكره من قَبيل الوصف التفصيليّ لمسجد بيت

المقدس لتأكيد وصوله إليه ودخوله في رحبته، ومروره بالقافلة المكّيّة لتأكيد حدوث عودته.

من أجل ذلك رجّحتُ أنّ تفاصيل قصة الإسراء والمعراج تخيّر لها رسول الله ﷺ الأوقات المناسبة التي تحقق المصلحة الشرعية في تثبيت الإيمان لا زعزعته، مما يعني أنه تدرّج في إخبارها، وانتقى لها نخبةً من أصحابه الراسخين في الإيمان أول الأمر، ممن تحتمل قلوبهم المؤمنة، وعقولهم المنفتحة، استيعاب تفاصيل هذه المعجزة الإلهية.

ويغلب على ظني أن عمر بن الخطاب كان ملمّاً بأوصاف المسجد الأقصى قبل حضوره إليه عند فتحه لبيت المقدس من خلال قربه الشديد من رسول الله ﷺ الذي كان يروي لأصحابه قصة الإسراء والعروج إلى السماء التي كانت واحدة من أعظم الكرامات النبوية، ورغم أن الروايات المنقولة عن النبي لم تورد قصة محاورته مع كفار قريش بالكامل حيث أغفلت المرويات التفاصيل التي عرضها النبي عند وصفه لموضع

المسجد الأقصى وعلاماته، إلا أنه يغلب على الظن كما قدمت أن هذه الأوصاف قد أخبر بها النبي أصحابه ومن بينهم عمر، إذ إن هذه الذكرى يوم جلّى الله لنبيه هذا الموضع - كأنه شاشة سينمائية ضخمة مقابل إحدى دور مكة - فأصبح يصفه موضعاً موضعاً لا يمكن أن تنسى، وظني أن النبي ﷺ أخبر كبار أصحابه بخريطة المكان الوصفية؛ ومن هنا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه شديد الوثوق بكونه المسجد الأقصى فيما أرجّح، إضافة إلى ما ذكرناه آنفاً.

وقد وقفتُ على نص صريح في أن النبيّ ﷺ أعطى عمر بن الخطاب وصفاً للمسجد الأقصى في رواية شداد بن أوس التي ذكرها أبو المعالي ابن المرجّى المقدسي المتوفى سنة ٤٩٢ هـ بإسناده أن عمر بن الخطاب قال للبطريق في بيت المقدس الذي ادّعى أن موضع المسجد هو موضع كنيسة القيامة: كذبتَ! لقد وصف لي رسولُ الله مسجدَ داود بصفةٍ ما هي هذه.

ويجزم المؤرخ والمحدّث ابن المرجّى في فضائل بيت المقدس

أن الصحابة عرفوا مسجد بيت المقدس بالصفة، وقد كان عليه مزبلة، ومحت الروم آثاره، وغيّرت أعلامه، ثم إن الله - سبحانه - هداهم إليه.

ومما يدعم ذلك ما رواه التابعيّ المقدسيّ الجليل إبراهيم بن أبي عبلة عن أبيه قال: «**قدِم عمرُ بن الخطاب بيت المقدس، وعسكَرَ في طور زيتا ثم انحدر، فدخل من باب النبيّ ﷺ فلما استوى في المسجد نظر يميناً وشمالاً، ثم قال: هذا والذي لا إله إلا هو مسجد سليمان بن داود الذي أخبر نا رسول الله [أنه أسري به إليه، ثم أتى غربيّ المسجد ثم قال: اجعلْ مسجد المسلمين ههنا مصلى يصلون فيه**» رواه الطبراني في مسند الشاميين وابن المرجى في فضائل بيت المقدس.

هذا الشوق غلب على أصحاب رسول الله ﷺ فنجد أن أبا بكر الصديق اهتمّ لأمر الشّام وعناه أمره، كما يقول ابن عساكر في تاريخه، فبعث إلى عمرو بن العاص - وكان على صدقات قضاعة مع الوليد بن عقبة - وكتب إليه يستنفره إلى الشّام: (إني كنت قد رَدَدْتُك عن العمل الذي ولاكه رسول الله ﷺ مرّة، وسماه لك أخرى، وقد أحببتُ - أبا عبد

الله - أن أفرغك لما هو خيرٌ لك في حياتك ومعادك منه، إلا أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك)، فكتب إليه عمرو بن العاص: (**إني سهم من سهام الإسلام، وأنت عبد الله الرّامي بها، والجامعُ لها، فانظر أشدّها وأخشاها فارمِ بي**) رواه ابن عساكر في تاريخه وابن حبيش في غزواته.

وأرسل أبو بكر إلى خالد بن الوليد بعد أن فتح الله على المسلمين القادسية وجلولاء من أرض العراق فأمره أن يمدّ جيوش المسلمين بالشّام وطلب منه العجلة في ذلك وقال: فوالله لقرية من قرى الشّام يفتحها الله على المسلمين أحب إليّ من رستاق عظيم من رساتيق العراق) رواه أبو زرعة الدمشقي في تاريخه وابن عساكر.

وقد نقل ابن المرجّى بإسناده عن عروة أنه كان في كتاب أبي بكر إلى خالد بن الوليد وهو بالعراق: «**أن اعجَلْ إلى إخوانكم بالشام، فوالله لقريةٌ من قرى بيت المقدس يفتتحها الله - تعالى - أحبّ إليّ من رستاق عظيم من رساتيق العراق**» رواه ابن المُرجَّى في فضائل بيت المقدس.

مقام التقديس

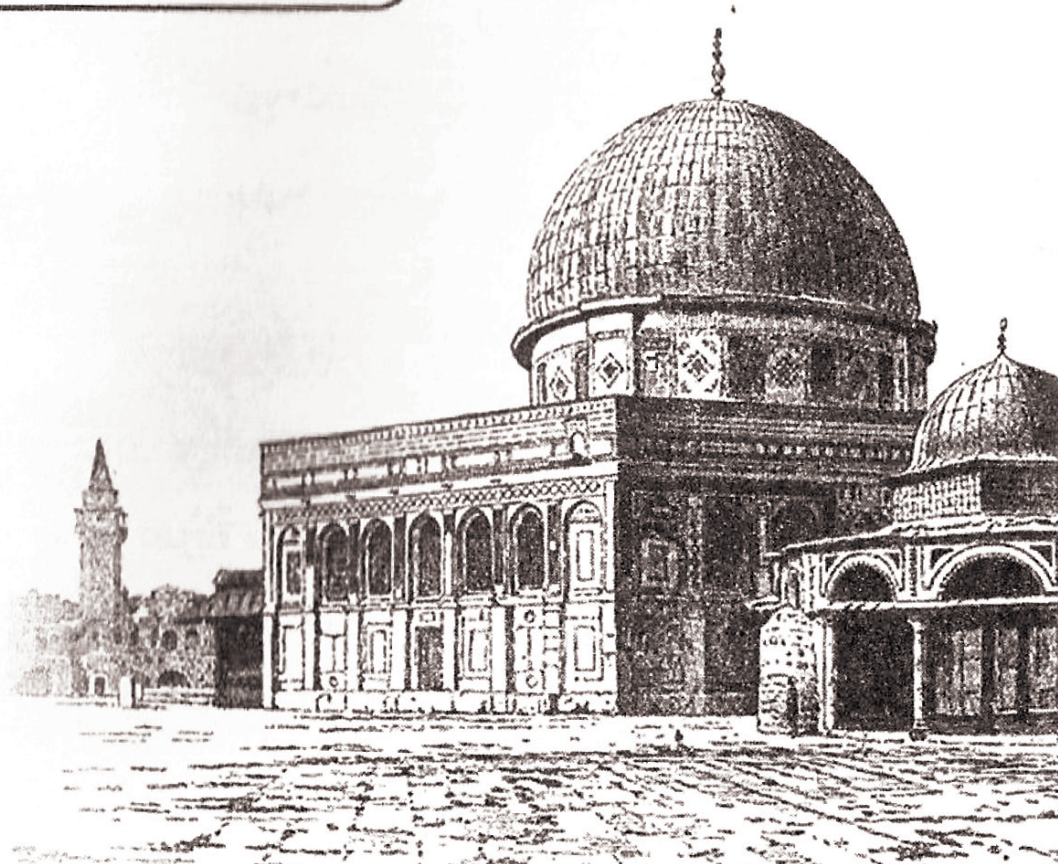

مقام التقديس

يأتي تقديس رسول الله ﷺ لهذه البقعة قولاً وفعلاً واعتقاداً، فثباتُ قضية البركة بنص القرآن والسنة جعلت هذه الأرض فوق الظن والافتراض بقدسيتها، أو أنّ هذه القدسيّة منحَها شخصٌ أو زعيمٌ، فالمانحُ لبركتها هو الله سبحانه، والمبلِّغ لذلك هو رسلُه وأنبياؤه.

وبركتها في الدنيا والآخرة، في العلم والعمل، في العمر والرزق، في الطاعة والروح، في المكانة والموطن، في الزرع والمعاملة، في الهواء والضرع... وليس للبركة التي منحها الله منتهى، ولا تُمنح هذه البركة لوضيعٍ أو مرذول أو مُهان، فالبركة لا يستحقها إلا الكريم المؤمن المستحقّ لها، والمستيقِن بحقيقتها.

وهذه البركة في المسجد الأقصى مرتبطة بمركز بركة آخر في بيت الله الحرام في مكة: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾، وقد مُنحت البركةُ أولاً للمسجد الأول

في مكة حيث الكعبة، ثم مُنِحت البركةُ ثانية للمسجد الأقصى بعد أربعين عاماً، يقول أبو ذر الغفاري رضي الله عنه: سألت رسول اللّهِ عن أول مسجد وضع في الأرض، قال: **المسجد الحرام. قلت: ثم أيّ؟ قال: المسجد الأقصى. قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون عاماً.** رواه مسلم.

فرسول الله ﷺ كما هو ظاهر في هذا الحديث يعرف هذه الحقيقة التي كشف الوحيُ الإلهي له عنها، فهذان الموضعان مُنحا البركة لكونهما أول المساجد التي سُجِد فيها لله، ولم يكشف لنا الوحي عمن وضع هذين المسجدين، مما يوحي بأن الواضع لهما واحد، وهو الأمر الذي اهتم له العلماء قديماً فخاضوا بالظن فيه، فمِن قائل يقول إن الملائكة أنشأتهما بأمر الله، وقيل آدم وقيل ابنه وقيل وقيل.... والأمر اليقيني عندي وعندك أن الله هو الآمر بذلك القاضي له في سابق علمه والمقدِّر لكونه.

والعجيب هنا أن ذاك الترابط ليس في التقرير الشرعي بوحدة

المكانين قديماً في السجود لله بل إن الكشف الأثري المادي يؤكد هذه الحقيقة فنجد هذا التطابق الهندسي العجيب بين تصميمي المسجدين المسجد الحرام والمسجد الأقصى، فتصميم المسجد الأقصى يتجه صوب الكعبة فلذلك لا نجد انحرافاً ظاهراً في التوجه صوبها عندما تكون داخل المسجد بل يكون اتجاه القبلة متوازيا نسبياً مع أطوال المسجد ذي الشكل شبه المنحرف، فأساس أسوار المسجد الأقصى يتجه للقبلة قبل فتح المسلمين لبيت المقدس بزمان طويل كما كشفت عنه الحفريات الحديثة.

ولم يكن أمر الارتباط بهذا فحسب حتى إن المسجد الأقصى يشترك مع بيت الله الحرام في ارتقاء أجر الصلاة فيه فالصلاة فيه بخمسمائة صلاة في غيره، إلا أن مكة أعظم منه منزلة، ولولا ما حظي به مسجد رسول الله ﷺ في المدينة من البركة العظمى بحلول رسول الله فيه وإعظامه له وتكريمه لكان المسجد الأقصى في مرتبة أجر العابدين فيه بعد الكعبة على التوالي.

وتجد في كلام الفقهاء هذا التقدير والتكريم للمسجد الأقصى لإدراكهم بالمنزلة المتقاربة بين الكعبة وبينه، فجعلوا نهيَ النبي ﷺ عن استقبال الكعبة أو استدبارها في قضاء الحاجة، نهياً منه عن فعل ذلك مع المسجد الأقصى على سبيل القياس وإن كانوا قد قالوا إن ذلك على الكراهة لا على التحريم كما هو الحال في الكعبة.

وأبينُ ربطٍ جرى بين المسجدين في أنهما قبلتان للإسلام، بل إن النبي ﷺ بدأ أمر الصلاة باستقبال المسجد الأقصى، وكان يجمع بين القبلتين بأن يجعل الكعبة بينه وبين قبلته الأولى إذا كان في المسجد الحرام بمكة، ويختلف أهل العلم في استقبال رسول الله ﷺ بيت المقدس، هل كان برأيه واجتهاده، أو كان عن أمر الله تعالى، فالذين قالوا إن ذلك كان بأمر الله، كابن عباس، نظروا إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ وقال آخرون كالحسن البصري إن ذلك كان برأيه واجتهاده، ويرى أصحاب هذا الرأي أنه اختار بيت المقدس ليتألَّف أهل الكتاب، أو لأن العرب كانت تحج البيت

غير آلفة لبيت المقدس، فأحب الله أن يمتحنهم بغير ما ألفوه، ليعلم من يتبع ممن ينقلب على عَقِبَيْهِ.

ومن أفطن ما قرأته في بيان مكانة هذه البقعة ما بيّنه ابن قيم الجوزية في مفتاح دار السعادة من توضيح لمعنى نسخ استقبال قبلة بيت المقدس وإقرار تعظيم المكان: «إن الله لم يخلق شيئاً ولم يأمر بشيء ثم أبطله وأعدمه بالكلّيّة بل لا بد أن يثبته بوجه ما لأنه إنما خلقه لحكمة له في خلقه... فمن ذلك نسخُ القبلة وبقاء بيت المقدس معظّماً محترماً تُشدّ إليه الرِّحال، ويقصد بالسفر إليه، وحطِّ الأوزار عنده، واستقباله مع غيره من الجهات في السفر، فلم يبطل تعظيمه واحترامه بالكلية، وإن بطل خصوص استقباله بالصلوات؛ فالقصدُ إليه ليصلَّى فيه باقٍ، وهو نوع من تعظيمه وتشريفه بالصلاة فيه والتوجه إليه قصداً لفضيلته وشرعه له نسبة من التوجه إليه بالاستقبال بالصلوات، فقدّم البيت الحرام عليه في الاستقبال لأن مصلحته أعظم وأكمل، وبقي قصدُه وشد الرحال إليه والصلاة فيه منشأ للمصلحة فتمت للأمة المحمدية المصلحتان المتعلقتان بهذين البيتين، وهذا

نهاية ما يكون من اللطف وتحصيل المصالح وتكميلها لهم».

ومِن أجلّ الأمور التي تدفع العبد المسلم إلى تقديس هذا المكان أنه من المواضع التي نزل بها الوحيُ الإلهي على رسول الله ﷺ، فقالت العلماء في قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف ٤٥]، قالت العلماء: نزل جبريل بهذه الآية في بيت المقدس ليلة الإسراء لمَّا اقتدى به الأَنبياءُ في الصلاة في المسجد الأَقصى، وفرغ من الصَّلاة.

وقد تعلم الرعيل الأول من رسول الله هذه المكانة للمسجد الأقصى، فتجد أمين هذه الأمة وقائد أجناد الشام وأحد العشرة المبشرين بالجنة يتشوّق أن يضم هذا المكان المقدّس جثمانَه الشهيدَ، فيحكي الإخباريون أنّ أبا عبيدة ابن الجراح انطلق يريد الصلاة ببيت المقدس، فأدركه أجله بفِحْل - قرب بيسان -، فتوفي بها. وقال أبو عبيدة: ادفنوني من غربي النهر إلى الأرض المقدسة. ثم قال: ادفنوني حيث قُبضت، فإنني أتخوف أن تكون سُنّة.

وانظر إلى ما كتبه الخليفة العباسيّ المستضيء بأمر الله إلى السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي بعد فتح بيت المقدس عام ٥٨٣ هـ: لا عذر لك في ترك جهاد العدو بنفسك، ... وأمير المؤمنين لا يرضى منك بأن تلقاه مصافحًا، بل يريد أن تحكم في تلك الأرض بحكم الله الذي قضاه على لسان سعد في بني قريظة والنضير، وعلى الخصوص البيت المقدس، فإنه بلاد الإسلام القديم، وأخو البيت الحرام في رف التعظيم، والذي توجهت إليه الوجوه من قبل بالسجود والتسليم. وقد أصبح وهو يشكو طول المدة في أسر ربته، وأصبحت كلمة التوحيد وهي تشكو طول الوحشة في غربتها عنه وغربته...

مقام البشارة

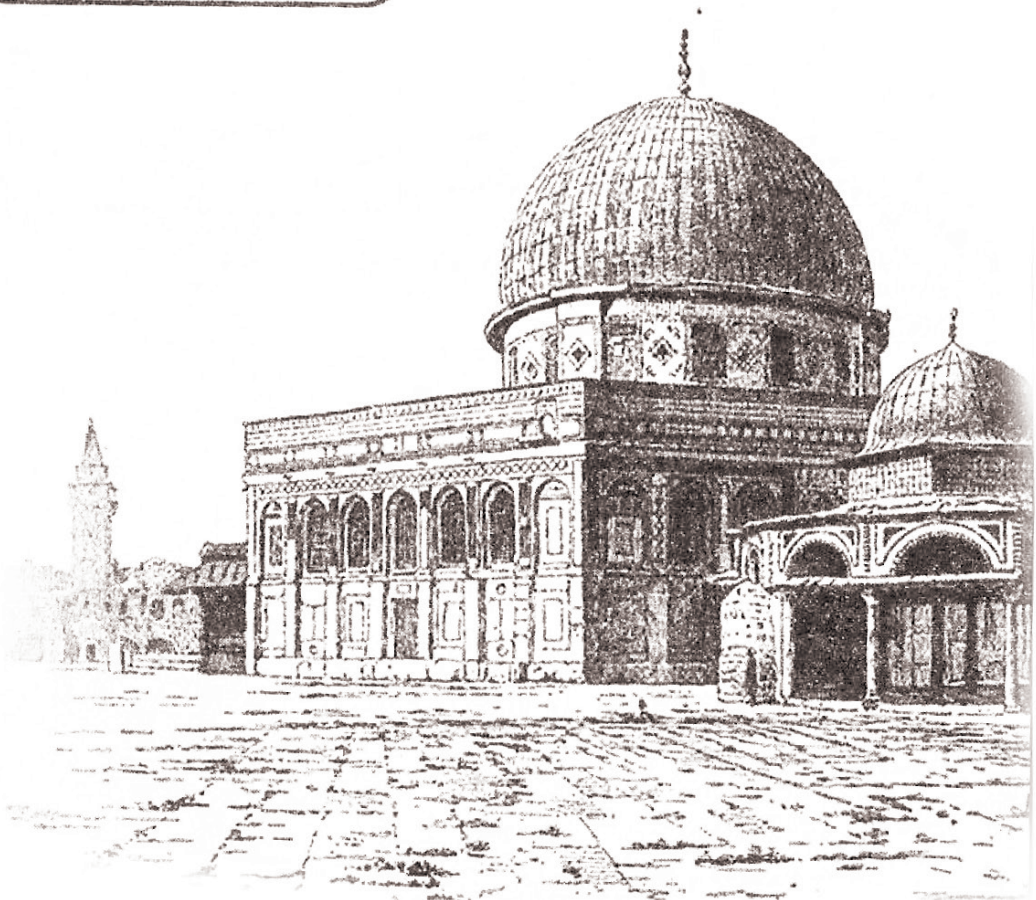

مقام البشارة

في اللحظات الأولى لخروج النبي ﷺ للدنيا ارتبطت الشام برسول الله ارتباط الضياء بالضياء فعن أبي أمامة رضي الله عنه قالَ: **قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَا كَانَ أَوَّلُ بَدْءِ أَمْرِكَ؟ قَالَ:«دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبُشْرَى عِيسَى، وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ مِنْهَا قُصُورُ الشَّامِ»**؛ فبمولده ﷺ أضاء النور في الشام حتى عكست قصورُ الشام الحصينةُ المتطاولة هذا النورَ المحمَّديّ الكاشف، وهذه أولى البشارات الإلهية بوصول النور إلى محل البركة، قال ابن كثير في تفسيره: «**... وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه، ونبوته ببلاد الشام، ولهذا تكون الشام في آخر الزمان معقلاً للإسلام وأهله، وبها ينزل عيسى ابن مريم...**».

وتترافق الرؤى المبشّرة حين يستعد للرحلة إلى المسجد الأقصى فوق البراق دابة الأنبياء، يقول رسول الله: (**رأيتُ ليلةَ أسري بي عموداً أبيضَ كأنه لؤلؤ، تحمله الملائكة،**

قلت: ما تحملون؟ قالوا: نحمل عمود الإسلام، أُمِرنا أن نضعه بالشام) رواه الطبراني في مسند الشاميين وابن عساكر في تاريخه.

وعندي أن صلاة رسول الله بالأنبياء والمرسلين إماماً في المسجد الأقصى إنما هو بشارة على أن هذا الموضع سيكون مسجداً للمسلمين، وأن هذه الإمامة إعلان شرعي بالولاية الدينية على هذا المسجد، وأن هذه الولاية الدينية لابد أن يعقبها ولاية سياسية وعسكرية بالسيادة الكاملة عليها.

وفي غمرة استعدادات النبي ﷺ بإعداد الخطط لفتح الشام واستعادة المسجد الأقصى إلى إسلام الأنبياء الذين يمثلهم خاتم الأنبياء، حين كان في تبوك يرسل البعوث والسرايا إلى تخوم الشام، ويعقد الاتفاقيات العسكرية والسياسية والاقتصادية مع قبائل التخوم الشامية يدخل عليه عوف بن مالك الأشجعي، وهو يتوضأ في خيمته الصغيرة التي لا تكاد تتسع لاثنين، فهناك يفاجئه الرسول بست قضايا، سميت بالعلامات على قيام الساعة، لأنها علامات كبيرة وتعني الكثير، وتعني فيما تعني أن ضخامة حدوثها يجعلها

دويّ حدوثها وعظيم تأثيرها واحدة من العلامات على قيام القيامة فعن عوف بن مالك قال: **أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ وَهُوَ فِي خَيْمَةٍ مِنْ أَدَمٍ فَتَوَضَّأَ وُضُوءًا مَكِيثًا فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَدْخُلُ؟ قَالَ: نَعَمْ قَالَ: قُلْتُ: كُلِي؟ قَالَ: كُلُّكَ فَقَالَ: يَا عَوْفُ اعْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ قُلْتُ: وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: مَوْتِي قَالَ: فَوَجَمْتُ لَهَا فَقَالَ: قُلْ إِحْدَى قُلْتُ إِحْدَى، وَالثَّانِيَةُ فَتْحُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ...**» الحديث في الصحيحين ومعظم كتب السنة.

ورسول الله هنا لا يكشف عن غيب بعيد، وإنما يتحدث عن أفق قريب هو يسعى إليه، ويعمل عليه، فيجنّد الجند ويعقد الجيوش، ويبني القدرة من أجل فتح بيت المقدس، ويعلم رسولُ الله مما علمه الله ومما أراه من نفسه أن ذلك سيكون قريباً جداً، ولكن الرسول صلوات الله وسلامه عليه لن يتحقق له شهود الفتح لأن الموت سيعاجله، لكنه يعلم أن أصحابه سيحملون الراية من بعده وينجزون ما بشّر به، وهذا ما كان من خليفته أبي بكر الصديق حيث جند أجناد الشام للفتح، وأُنجز الفتح الأكبر في عهد الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب،

الذي حضر بنفسه من عاصمة الإسلام في المدينة ومعه آلاف الصحابة لشهود فتح بيت المقدس وإقامة الصلاة في المسجد الأقصى وفتح أفق النور من جديد هناك.

لذلك لا نجد الأمر مستغرباً عندما يندفع الصحابة لتحقيق نبوءة النبي ﷺ بفتح بيت المقدس، والرغبة في أن يكونوا في جيش الفتح. يقول شهاب الدين أبو محمود ابن تميم المقدسي في كتابه مثير الغرام تعليقاً على هذا الحديث: (**إن في الإخبار بفتحه استدعاء من الصحابة - رضي الله عنهم - بالجهاد، وفتح هذا البيت المبارك، والمنافسة في ذلك...**).

وبقي هذا الحب العظيم والهم الكبير للشام في صدر رسول الله حتى في أيامه الأخيرة وهو يجود بنفسه، ويعيد التأكيد على بشارته واثقاً مطمئناً بأن الشام ستفتح وستفتح مدينة بيت المقدس، وسيرفرف الإسلام فيها أجيالاً وأجيالاً فعن شداد بن أوس أَنَّهُ كَانَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فَقَالَ: «**مَالَكَ يَا شَدَّادُ؟**» قَالَ: **ضَاقَتْ بِيَ الدُّنْيَا، فَقَالَ:**

«انس عليْكَ، إِنَّ الشَّامَ يُفْتَحُ، وَيُفْتَحُ بَيْتُ الْمَقْدِسِ، فَتَكُونُ أَنْتَ وَوَلَدُكَ أَئِمَّةً فِيهِمْ إِنْ شَاءَ اللهُ»

وهنا تأتي إشارة ذكية من الإمام الشافعي رحمه الله رواها عنه الإمام الخطابي في معالم السنن، يعلّل فيها نهيَ أبي بكر الصديق لأجناده عن تخريب العامر وتقطيع الشجر المثمر بقوله: ولعل أبا بكر إنما أمرهم أن يكفوا عن أن يقطعوا شجراً مثمراً لأنه سمع النبي ﷺ يخبر أن بلاد الشام يفتح على المسلمين فأراد بقاءها عليهم.

ولا أجد أقوى دلالة فعلية على الثقة بتحقق البشارة من ذاك الفعل العجيب الذي فعله رسول الله مع تميم بن أوس الداري الذي قدم مع ثلة من قومه من الخليل جنوب بيت المقدس وأعلنوا إسلامهم في السنة التاسعة للهجرة، وهناك حدث أمر يؤكد ما ذهبنا إليه من شدة حرص النبي ﷺ على بلوغ بيت المقدس وفتحها، إذ قام تميم الداري يوماً بطلب من قومه الوافد معهم فقال: يا رسول الله ﷺ، **إن لي جيرة من الروم بفلسطين لهم**

قرية يقال لها حبرى وأخرى يقال لها بيت عينون، فإن الله فتح عليك الشام فهبهما لي، فقال: هما لك. رواه الطبراني وابن عساكر.

وليس هذا فحسب فقد كان تميم يحمل وثيقة الإقطاع هذه من رسول الله إذ عرضها على أبي بكر وعمر بن الخطاب فأقرّاه عليها ، فقد أورد ابن عساكر بإسناده أنه (**لمّا قُبِض رسول الله [وولي أبو بكر، وجّه الجنود إلى الشام فكتب لنا كتاباً نُسختُه: بسم الله الرحمن الرحيم، من أبي بكر الصديق إلى أبي عبيدة ابن الجراح: سلامٌ عليك! فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: امنع من كان يؤمن بالله واليوم الآخر من الفساد في قرى الداريين؛ وإن كان أهلها قد جَلَوا عنها وأراد الداريّون أن يزرعوها فإذا رجع أهلها إليها فهي لهم وأحقّ بهم**)

وروى الطبراني وابن عساكر بإسنادهما عن تميم الداري أنه قال: **استقطعتُ رسول الله [أرضاً بالشام قبل أن تفتح فأعطانيها، ففتحها عمر بن الخطاب في زمانه، فأتيته فقلت إن رسول الله ﷺ أعطاني أرضاً من كذا كذا، فجعل عمرُ**

ثلثها لابن السبيل، وثلثاً إلى عمارتها، وثلثها لنا. رواه الطبراني وابن عساكر.

وتستمر البشارة إلى يومنا هذا معلنة أن المعركة القادمة في هذا المكان ستكون مع اليهود هذه المرة، ولم يحدد النبي ﷺ موعداً لها، وأرسل النظر فيها إلى مدى بعيد يحصره حديثه بأن ذلك يكون قبل قيام الساعة مما جعل بعض الناس يظنون أن ذلك من علامات الساعة الصغرى، وفي قراءة الحديث الشهير الذي وردنا بروايات كثيرة في الصحيح وغيره أنّ رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود، حتى يقول الحجر وراءه اليهوديّ: يا مسلم هذا يهودي وراءي فاقتله**»؛ نجد أن هذا الحديث خاطب به رسولُ الله الحاضرين حوله، ولكن الخطاب في حقيقة الأمر كان للمكلفين الذين لم يتخلّقوا بعد في أرحام أمهاتهم، وهو يعلم ويثق أن خطابه هذا سيصل إليهم وسيسمعونه، وسيعلمون حين سماعه أن النصر مكتوب لهم، وأن الكون بمظاهره الطبيعية بحجارته وأشجاره سيكون سعيداً بالمشاركة في القتال بالدلالة والإرشاد وأن

هذه الجمادات والكائنات ستكون عيناً للمؤمنين حتى يؤدوا مهمتهم وينهوا الاحتلال الذي يكون شعاره الهوية اليهودية آنذاك.

وفي أكناف المسجد الأقصى قلب بيت المقدس تبزغ الطائفة المنصورة، روى الإمام أحمد في مسنده عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ، لِعَدُوِّهِمْ قَاهِرِينَ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ إِلَّا مَا أَصَابَهُمْ مِنْ لَأْوَاءَ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ**». **قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَيْنَ هُمْ؟ قَالَ: «بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ وَأَكْنَافِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ»**.

وهذا الحديث نصٌّ في ديمومة البشارة بدوام الحق وظهوره والتزام طائفة من الناس به، والبشارة بقدرتهم على تجاوز المشاق وتجاوز خذلان الأقارب والأباعد لهم، وأنهم يظلون على هذه الحال من الثبات والصمود حتى يقضي الله أمره، وهي إشارة بأنهم في تحدٍّ دائم، وصراع مرير لا يكاد ينتهي حتى يبدأ من جديد.

مقام الاستحقاق

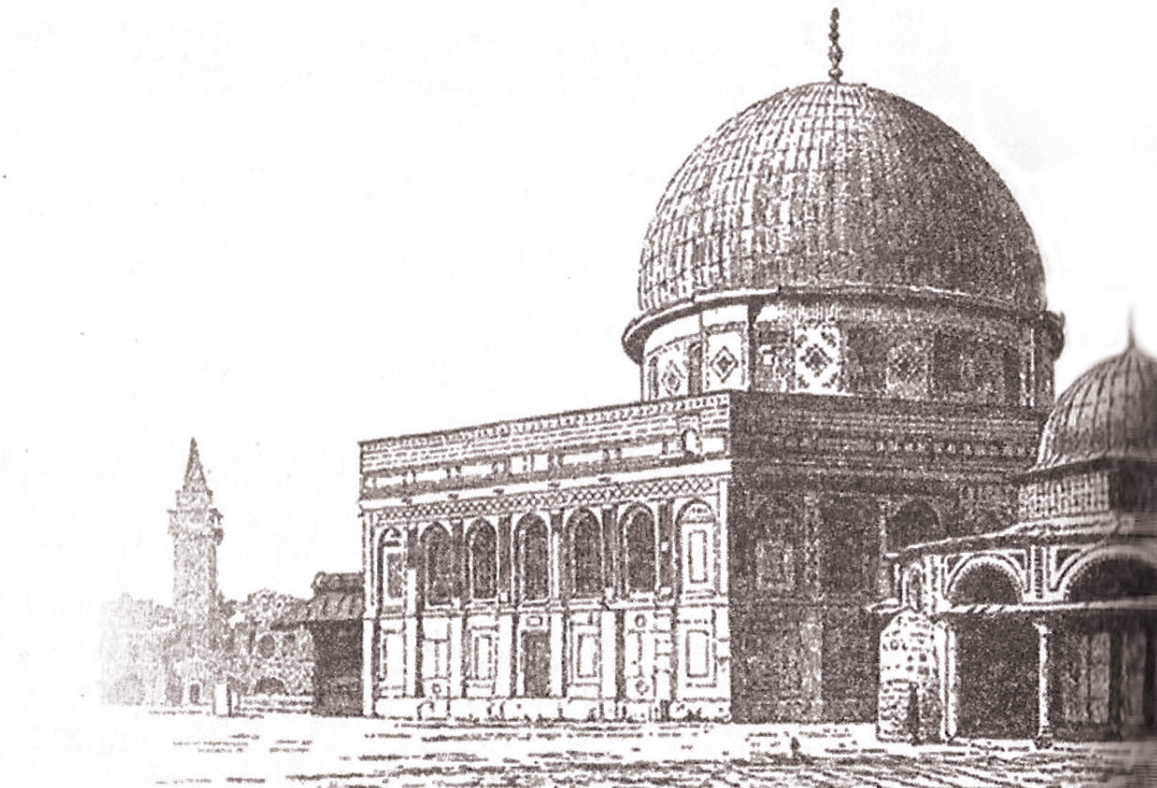

مقام الاستحقاق

إذا أحبّ المرءُ عملَه وشغف به وسعى له سعيه، واستضاء بنور من الله وتوفيقه، بلغ به الأنسُ بعمله هذا مبلغاً عظيماً، لاسيما إذا كان ذلك مقروناً بالثقة بإنجاز الموعود، فهو يستصحب الأجر والرضا في كل حركاته وسكناته، وترتاح نفسه بصدقه مع نفسه وتآلُفِ قلبه وجوارحه في تناغم وانسجام، فهو يقول ويفعل، ويعرف من نفسه الحرص والمتابعة، ويطمع في مزيد ومزيد.

وعندما ينجذب المرء العامل إلى عمله حباً واختياراً وامتلاءاً، فلا يبقى في القلب إلا المحبوب، فإن ذلك الانجذاب والحرص يَعْظُم بمشاهدة أثر حرصه، برؤية ما صنعه بيده أو بمشاركة إخوانه وأصحابه.

ورسولُ الله بدأ مهمة الاستحقاق بنفسه من خلال عمل دؤوب دام سنوات يستعد فيها لحيازة مركز البركة في بيت المقدس وضم

المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، وهو ما شرحناه مطولاً في كتابنا «فتوح فلسطين»، ونستنتج من جملة المكاتبات والاتفاقيات المعقودة مع قبائل تخوم الشام أن النّبي ﷺ قام بتأمين المناطق الجنوبية للشام وفتح ثغرة كبيرة ستدخل منها أولى البعوث والسّرايا إلى جنوبي فلسطين من طريق أيلة، كما وفّرت هذه الاتفاقيات المؤن وبعض التّمويل لبعوث النّبي ﷺ وجيوشه.

ثم تتالت البعوث العسكرية ولاسيما بعد غزوة تبوك، وقد جعلت الاختراقات السّياسية والعسكرية المهمة للسرايا والبعوث النبوية في جنوبي بلاد الشّام هذه البعوث أكثر تأميناً وجَرَاءة على بلوغ أهداف أعمق، وكانت آخر مهمة عسكرية أمر بها النّبي ﷺ باتجاه فلسطين، وتحديداً إلى الجنوب الغربي من مدينة الرّملة الفلسطينية عند بلدة (يبنا) القريبة من ساحل البحر الأبيض المتوسط، كلّف بها أسامة بن زيد بن حارثة كما في حديث أبي داود وأحمد وابن ماجه عن أسامة بن زيد قال: «أمرني رسول الله لمّا وجهني، فقال: اُغدُ على يبنا (وفي

رواية أُبْنا) صباحاً ثُمَّ حَرِّق»، والموضع الثاني كان إلى جنوب فلسطين، بدليل ما ورد أن رسول الله أرسل - وهو في تبوك - علقمةَ بن مُجَزِّز المُدْلِجي إلى فلسطين كما روى ابن عائذ في مغازيه عن ابن عباس، ويحدد ابن الكلبي في كتابه «جمهرة النسب «وجهة علقمة بصورة أدق بأنها إلى الدّاروم (دير البلح) من أرض غزة اليوم.

خلال ذلك كله كان النّبي ﷺ ينفتح على المزيد من القبائل العربية الشّمالية ويتواصل معهم فكانت السنة التّاسعة والعاشرة للهجرة مليئة بأخبار الوفود والبعوث والسّرايا بعد أن دانت له مكة والحجاز، وأسلمت قبيلة قريش، وكان من جملة الوافدين أقوام من أهل فلسطين من لخم وجذام ممن يسكنون إيلياء والخليل على رأسهم تميم بن أوس الداري ونفر من قومه.

وقد علم رسول الله ﷺ أن مهمة حماية بيت المقدس ستكون صعبة وعسيرة وأنها تحتاج دائماً للاستعداد، وينبغي أن تكون

هذه الأرض على الدوام متأهبة للجهاد والرباط لأنها عقر دار المؤمنين وأصلهم وموضعهم، لا تشغلها الخصومات السياسية الداخلية، ولا تصرفها عن إعداد قوتها، وإكرام خيلها الذي هو وسيلة جهادها آنذاك، وإلا فإن مصيرها سيكون بيد الأعداء المتربّصين، فقد روى الإمام النسائي في سننه بسنده عَنْ سَلَمَةَ بْنِ نُفَيْلٍ الْكِنْدِيِّ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَذَالَ النَّاسُ الْخَيْلَ، وَوَضَعُوا السِّلَاحَ، وَقَالُوا: لَا جِهَادَ! قَدْ وَضَعَتْ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا! فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِوَجْهِهِ وَقَالَ: «**كَذَبُوا، الْآنَ الْآنَ جَاءَ الْقِتَالُ! وَلَا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ، وَيُزِيغُ اللَّهُ لَهُمْ قُلُوبَ أَقْوَامٍ، وَيَرْزُقُهُمْ مِنْهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، وَحَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ، وَالْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ يُوحَى إِلَيَّ: أَنِّي مَقْبُوضٌ غَيْرَ مُلَبَّثٍ، وَأَنْتُمْ تَتَّبِعُونِي أَفْنَاداً، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، وَعُقْرُ دَارِ الْمُؤْمِنِينَ الشَّامُ**».

وهذا الحديث عجيب في توصيف ما يصيبنا اليوم، فقد أشار إلى وجود أقوام منا يميلون إلى ترك الجهاد ويقولون إن ذلك

ليس زمن الحرب فقد وضعت الحرب أوزارها، ووصفهم رسول الله بالزيغ، وذكر الحديث أن أقواماً سيثبتون ثباتاً طويلاً على الحق، وسيرزقهم الله بثباتهم هذا، وأن النصر سيتأخر بسبب وجود الزيغ في الرأي واختلاف الناس على أمر الجهاد، وشدة الخصومات المؤدية إلى الفتن، لكن ذلك كله لا يصرف نصر الله ووعده بتحقيقه، بسبب إصرار المجاهدين على ثباتهم على أمر الجهاد، ويعطي النبي ﷺ إشارته إلى أن الشام هي دار الوحدة واجتماع الكلمة وأن كلمة السر في هذه الوحدة والاجتماع هو الجهاد في تلك الأرض التي يشتد فيها الصراع؛ فمن أراد هذه الأرض المباركة فعليه أن يستحقها.

ويعلمّنا رسول الله أن نستعد لزمانٍ نكون فيه مسؤولين عن حماية المسجد الأقصى والدفاع عنه في مستدرك الحاكم وفيه (... و ليوشكن أن لا يكون للرجل مثل شطن فرسه من الأرض حيث يرى منه بيت المقدس خير له من الدنيا جميعاً، أو قال: خير من الدنيا و ما فيها) صححه الذهبي؛

فهذا الحديث نصٌّ خطير على أن المرء كلما اقترب من بيت المقدس كلما كان ذلك أخير له وأفضل في زمانٍ ما، وهو الزمان الذي فيه جهاد في هذه الأرض كزماننا هذا وزمان الفتح الأول، وقد علِمنا أنه زمانُ الجهاد لورود الإشارة إليه بما يكاد يصرّح به، مِن ذكر الفرس - وهو عُدّة الجهاد - وما يلزم لحركته من سوط أو شطن أو حبل، وكأنه سيُحالُ بين المسلمين وبين المسجد الأقصى حتى يتمنى الرجل لو كان على مسافة ذراع من المسجد أو قياسِ حبلٍ يربط به فرسه.

وقد علّمنا التاريخ بعض تجاربه في حيثيات الاستحقاق فهذا صلاح الدين الأيوبي القائد الفاتح لبيت المقدس يترك أداء ركن من أركان الإسلام لانشغاله بحماية المسجد الأقصى، وذلك بفتوى من القاضي الفاضل البيساني إذ كان يرى أن حماية القدس أوجبُ من الحج إلى بيت الله الحرام!، فيحكي المؤرخون أنه لمّا فتح صلاح الدين القدس وغيرها من السواحل ولم يبق في أيدي الصليبيين

إلا عكا وصور وغيرها من البلاد، ورأى أن المشيب أنذره بقرب الأجل، عقَدَ العزمَ على الحج إلى بيت الله الحرام فلما بلغ هذا الأمر وزيرَه القاضي الفاضل البيساني كتب إليه مشيراً: إن الفرنج لم يخرجوا بعدُ من الشام، ولا سلَوْا عن القدس ولا وُثِق بعهدهم في الصلح، فلا يؤمَن مع بقاء الفرنج على حالهم، وافتراق عسكرنا، وسفر سلاطيننا سفراً مقدراً معلوماً مدة الغيبة فيه، أن يسيروا ليلةً فيصبِّحوا القدسَ على غفلة، فيدخلوا إليه والعياذ بالله، ويفرط مديد الإسلام، ويصير الحج كبيرة من الكبائر التي لا تغتفر، ومن العثارات التي لا تقال.

وكان صلاح الدين كلما أراد حج بيت الله الحرام أتت معركة أرغمته على الذهاب إليها وتركِ الذهاب للحج، وكان كثير من حجاج الأندلس والمغرب العربي يغيّرون مسيرتهم من الحج إلى محاربة الصليبيين اقتداءً به.

وعلى كل حال فقد كان رسول الله يقرأ مستقبل الأيام

قراءة عملية ترفده المعطيات الواقعية الناتجة عن توصيف للواقع وتحليل لنتائجه في عملية مستمرة متطورة، وكان يعرف هدفه باتجاه بيت المقدس، وأعد لذلك خطة استراتيجية تتوافر فيها مواصفات السيطرة على خطة الفتح، بتوفير مستلزماتها، والوفاء بهذه المستلزمات، وإعداد القيادة التقنية والتغلب على العقبات الخارجية التي قد توقف الخطة في بعض المراحل، وتنفيذ سيناريو الأزمة الذي فوجئت به الإمبراطورية الرومانية، من خلال بروز قوة صاعدة غير متوقعة.

ومعرفة رسول الله ﷺ اليقينية بهذا المستقبل ناتجة حقاً عن شعوره بالحاضر الراهن الذي كان يعيش فيه، مما أدى إلى استنهاضه الشامل لكل قوى الدفع الحضاري لتعمل بأقصى طاقتها؛ ولا يمكن أن نفصل هذا الأداء الاستراتيجي النبوي لإعادة بيت المقدس إلى منظومة الإسلام الذي أعلنه الأنبياء جميعاً عن الرؤية المتسمة بالثقة المطلقة بالنصر والتمكين والتي هي من معارف الوحي الإلهي الممتدة إلى اليوم، والتي كان

لها دور كبير في تغيير المنظومة الفكرية والاعتقادية السائدة لدى العرب قبل التمكين الإسلامي بإمكانية الانتصار على الرومان والفرس أقوى الإمبراطوريات القائمة آنذاك، وبقراءة عميقة لسيرة النبي ﷺ تجاه الشام وبيت المقدس نجد أن النبي عليه الصلاة والسلام انطلق من تصور إيجابي لدور الإنسان المسلم الجديد المتحمس الغني بثقافته المؤمنة الجديدة، وهو التصور الذي أزاح التصور السلبي لقدرة الإنسان العربي في الجزيرة العربية قبل الإسلام التي قد تنزع لطابعٍ يحب التنبّؤ، ويكرس ثقافة الانتظار.